أرادوا الحق فضلوا عنه، أما الآن فقد علم الجميع الحق وعرفوه، ولكنهم خالفوه؛ وبذلك استحقوا جميعاً أن يكونوا مغضوباً عليهم»[(١)].

ومع هذا فكثرة تكرار التحذير منهم في القرآن؛ لأن الله قدَّر كوناً بما أخبر به رسوله ﷺ، أن من أمة محمد ﷺ من سيتبع اليهود والنصارى ويتشبه بهم.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»[(٢)].

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٣/ ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ٩/ ١٢٦ (٧٣٢٠)، كتاب الاعتصام باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، ومسلم ٤/ ٢٠٥٤ (٢٦٦٩)، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

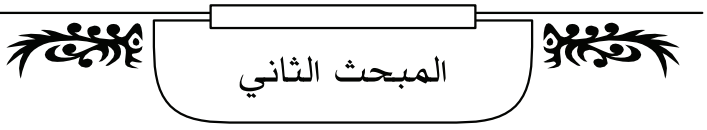

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.**
- **المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق.**

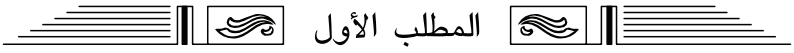

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

تنوع الحديث في كتاب الله تعالى عن الآيات الكونية، والحثِّ على التفكر فيها؛ لأن هذا مما يزيد الإيمان بالله وقدرته وعظمته سبحانه، فيعمل العبدُ لرضاه ويبتعد عن سخطه.

ومن ذلك السماوات والأرض وما فيهما من آيات، والليل والنهار، والشمس والقمر والكواكب، والجبال والأنهار، وغير ذلك[(١)].

قال ابن جزي: «فكل ما جاء في القرآن من التنبيه على المخلوقات والاعتبار في خلقه الأرض والسماوات، والحيوان والنبات، والريح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغير ذلك من الموجودات؛ فهو دليل على خالقه، ومنه إثبات الوحدانية، والرد على المشركين، والتعريف بصفات الله من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وغير ذلك من أسمائه وصفاته، والتنزيه عما لا يليق به»[(٢)].

وقد حثَّ العلماء على التفكر في هذه الآيات، والتأمل فيها.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥.
(٢) التسهيل ١/ ٨.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ»[١].

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «لأن أقرأ ليلتي حتى الصبح بإذا زلزلت، والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إليَّ من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذّاً، أو قال: أنثره نثراً»[٢].

ومن عادات القرآن اقتران بعض الآيات الكونية فيه ببعض، والتي هي محلٌّ للتأمل والتفكر، والجمعِ والدراسة، **ومن أمثلة ذلك:**

❐ أولاً: اقتران الشمس والقمر:

الشمس والقمر من آيات الله العظام، بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتُضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما لما عَرَف ذلك عامةُ الناس، بل كان لا يعرفه إلا أفرادٌ من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت[٣].

وقد اقترنا في مواضع كثيرة من القرآن، **ومنها:**

ـ قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾؛ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً»[٤].

وقال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٨). ينظر: كنز العمال ٨/ ٣٣٤ (٢٢٥٤٤).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٧)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٤١ (٣٠١٦٠).
(٣) تفسير السعدي ٢٦٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

والحيوان، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية؛ وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظمُ في القلوب، وأكثرُ وقعاً من الأحوال الأرضية»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وفي هذه الآية اقترن مع الشمس والقمر: النجوم، وجاء هذه الاقتران في أربع مواضع من القرآن، وكلُّها من الآيات العلوية العظيمة.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

قال السعدي: «أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة»[٣].

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٧٧.
(٢) تفسير السعدي ٤٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

جاءت هذه الآيات في سياق واحد إشارة إلى ما به منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، وبها يعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، إلى غير ذلك، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده، وإذا تفكر العاقل فيها عرف أن هذه الدار مزرعةٌ لدار القرار[(١)].

قال ابن جزي: «أي: كلهم في فلك يسبحون؛ يعني: الشمس والقمر دون الليل والنهار، إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح في الفلك، فالجملة في موضع حال من الشمس والقمر، أو مستأنفاً، فإن قيل: لفظ كل ويسبحون جمع، فكيف يعني الشمس والقمر وهما اثنان؟ فالجواب: أنه أراد جنس مطالعها كل يوم وليلة وهي كثيرة»[(٢)].

وبدلالة اقتران النجوم والشمس والقمر في آيات من كتاب الله اختار الرازي أن يضمها في التفسير هنا مع الشمس والقمر حيث يقول: «لا يجوز أن يقول: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر: النجوم؛ ليثبت معنى الجمع، ومعنى الكل، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها، والله أعلم»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

سمَّى الله تعالى الشمس في هذه الآية سراجاً لما فيها من النور والحرارة، والقمر فيه النور دون حرارة، وهذا من أدلة عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح والمنافع للخلق دليل على كثرة خيراته.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟

(١) ينظر: تفسير السعدي ٥٢٢.
(٢) التسهيل ٢/ ١٩٢.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٤، وينظر: تأويل مشكل القرآن ١٩٣.

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصّلت].

قال ابن عطية: «ثم عدد آياته لتعبر فيها من صدق عن التوحيد بذكر الليل والنهار، وذكرهما يتضمن ما فيهما من القِصَر والطول والتداخل والاستواء في مواضع، وسائر عبرهما، وكذلك الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله فيهما ونفعه عباده بهما»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرَّحمٰن].

هذا من أمثلة قَرْن الشمس والقمر لبيان الدِّقَّة في جريانهما وتعاقبهما بتقدير الصانع الحكيم.

قال ابن كثير: «أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة].

ونهاية هذا الاقتران اللفظي في كتاب الله تعالى اجتماعُ الشمس والقمر ذاتاً أو صفة في نهاية العالم يوم القيامة.

قال ابن الجوزي: «في معنى الآية قولان:

أحدهما: جمع بين ذاتيهما، وقال ابن مسعود: جُمعا كالبعيرين القرينين، وقال عطاء بن يسار: يجمعان ثم يقذفان في البحر، وقيل: يقذفان في النار، وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

والثاني: جُمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفراء(٣)، والزجاج(٤)»(٥).

وهذا الاقتران بين آيتين من آيات الله الكونية، دليل على عظمة هاتين الآيتين، وأن بينهما من الاتصال شيءٌ كثير، ومن ذلك:

ـ أن الشمس والقمر مُتكامِلان، فإحداهما آية الليل، والآخر آية النهار.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٨٩.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٠٩.
(٤) معاني القرآن ٥/ ٢٥٢.
(٥) زاد المسير ٨/ ٤١٩.

ـ وبالشمس والقمر يتبين فضل الله على عباده، فبهما تقوم مصالح العباد في معاشهم ودنياهم.

وفي كل المواضع التي اقترن فيها الشمس والقمر قدمت الشمس إلا في موضع واحد فقد ذُكر القمر قبل الشمس.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ومن الحِكَم في تقديم الشمس على القمر:

ـ أن الشمس هي الأصل، ونور القمر جزء من نور الشمس.

وهذا مما يدل على أهمية الشمس للقمر وللأرض وللمخلوقات عامة، فبدون الشمس لا يُرى القمر، وبدون الشمس لا تقوم حياة على الأرض.

ـ أن تقديم الشمس تقديم للأفضل والأشرف.

ولذا تكررت كلمة الشمس في القرآن أكثر من كلمة القمر[١].

وأما تقديم القمر على الشمس:

فقد قال الزركشي: «وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

فيحتمل وجهين: مناسبة رؤوس الآي، أو أن انتفاع أهل السماوات به أكثر»[٢].

والملاحظ في هذه الآية التي قُدم فيها القمر أن بينه وبين الشمس فاصلاً لفظياً، وليس كأكثر المواضع في توالي لفظ الشمس والقمر، وهو دليل على دقةِ وإحكام ألفاظ القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

❐ ثانياً: اقتران الليل والنهار:

اقترن الليل والنهار في القرآن في مواضع كثيرة، وفيه بيان كمالِ نعمة الله على عباده، **ومن الآيات التي اجتمع فيها الليل والنهار:**

---

(١) وردت الشمس في القرآن ٣٣ مرة، والقمر ٢٧ مرة، واقترنا في ٢٣ موضعاً.
(٢) البرهان ٣/ ٢٥٩.

ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم»[1].

وقد امتنَّ الله بذلك على عباده فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وقد تكرر اقتران الليل والنهار كثيراً في سياق التذكير بنعمة تعاقبهما، وما فيهما من رحمة الله تعالى، ومصالح للعباد، للدلالة على توحيد الله تعالى، ومن الآيات في هذا المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وتعاقب الليل والنهار عليكم أيها الناس.

(١) تفسير السعدي ٤٥٤.

وإنما الاختلاف في هذا الموضع: الافتعال، من خُلوف كل واحد منهما الآخر، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان]، بمعنى: أن كل واحد منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليل جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خلفه»[١].

وقال السعدي: «أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة، آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلٰهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي الجمع بين هذه المخلوقات العظيمة المتضادة بيان عظمة الله تعالى وعظيم قدرته.

قال ابن كثير: «يذهب الليل بدآدئه[٣] وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾، فبيَّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه»[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٧٢.
(٢) تفسير السعدي ٧٨.
(٣) الدآدئ: ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وكلّ إناءٍ قارَبَ أن يمتلئَ فقد تدأدأ، وكذلك هذه الليالي تكون إذا قارب الشهر أن يكمُل. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٦٢، الصحاح ٢/ ٥٢.
قال الخليل: «الدَّآدِئ: وهي ثلاث ليال، خمس وست وسبع وعشرون» العين، مادة: (داد) ٢٧٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

وقال أبو السعود: «﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد].

قال الماوردي: «معناه: يُغشِي ظلمةَ الليل ضوءَ النهار، ويغشي ضوء النهار ظلمة الليل»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

ذكر المفسرون في معنى هذه الآية: أن الله جعل الليل والنهار يخلف كل واحد منهما صاحبه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وكل واحد منهما مخالفاً صاحبه، فجعل الليل أسوداً والنهار أبيضاً، وكل واحد منهما خلفاً من الآخر، فما فات أحدهما من عمل يعمل فيه لله، أدرك قضاؤه في الآخر(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزُّمر: ٥].

قال الطبري: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يقول: يغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٤).

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٢.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٣.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٩/ ٢٩٠، ٢٩١، والنكت والعيون ٤/ ١٥٣.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٥٣.

وقال البيضاوي: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية].

قال ابن كثير: «﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس]، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ [الحج: ٦١]؛ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا»[(٢)].

وكذلك تكرَّر كثيراً اقترانُ الليل والنهار لبيان أن الليل والنهار يزيدان وينقصان على حساب بعضهما، ومن الآيات التي أشارت لذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عمران].

أي: تدخل ما نقصت من الليل في النهار، وكذا العكس.

قال الفراء: «نقصان الليل يولج في النهار، وكذلك النهار يولج في الليل، حتى يتناهى طول هذا وقصر هذا»[(٣)].

وقال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ تدخل ما نقصتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، وتدخل ما نقصتَ من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار»[(٤)].

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٥٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٤.
(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٥.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٣٠٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالساعات والأوقات»(١).

وقال ابن كثير: «﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»(٢).

وبعد تأمل مواضع اقتران الليل والنهار تبين لي ما يلي:

١ ـ كثرة تكرار اقتران الليل والنهار عند الاستدلال على توحيد الله إما باختلافهما من الضياء والظلام، والطول والقصر، وإما بتعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، كل ذلك بإتقان وتدبير دقيق، ما يدل على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

٢ ـ أن كثرة اقتران الليل والنهار لما بينهما من التضاد الذي يتبين من خلاله فضل الآخر.

٣ ـ أن لفظ الليل يأتي قبل لفظ النهار في كل القرآن، وفيه إشارة إلى أن الليل هو الأصل، ولذا تكرر في القرآن أكثر من النهار.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٨.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ودليل لهم أيضاً على قدرة الله على فعل كل ما شاء ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ يقول: نَنْزَعُ عنه النهار، ومعنى: ﴿مِّنْهُ﴾ في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلخُ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهب بالنهار»(١).

وقال الماوردي: «أي: نخرج منه النهار؛ يعني: ضوءه؛ مأخوذ من سلخ الشاة إذا خرجت من جلدها»(٢).

وقال البغوي: «وقَدَّم الليل على النهار في الذِّكْر؛ لأنه أقدمُ منه، قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾»(٣).

٤ ـ الآيات التي ذُكر فيها خلق الليل والنهار، غالباً ما تُختم بصفات العزة والعلم للخالق ﷻ، والحث على التفكر والتدبر.

قال ابن كثير: «كثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم»(٤).

٥ ـ أن الترتيب الأغلب للآيات الكونية في القرآن: الليل والنهار والشمس والقمر، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه بالنظر إلى القَدْر والأوَّلية للشمس على القمر، وإلا فكل الآيات رحمةٌ من الله، ولا يَستغني عنها العباد، فالآيات يكمِّل بعضها بعضاً، وقد وافق هذا الترتيبُ ترتيبَها حسب كثرة تَكرارها في القرآن الكريم، فقد جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥١٦.
(٢) النكت والعيون ٥/١٧.
(٣) تفسير البغوي ١/١٧٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٤، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

مرة، وجاء ذكر النهار سبعاً وخمسين مرة، وجاء ذكر الشمس ثلاثاً وثلاثين مرة، وجاء ذكر القمر سبعاً وعشرين مرة، فسبحان الحكيم العليم[١].

❐ ثالثاً: اقتران السماء والأرض:

السماوات والأرض من مخلوقات الله العظيمة، وقد قرن بينهما سبحانه في كتابه في مواضع كثيرة، وغالباً ما يأتي الاقتران في سياق آيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية].

ففي السماوات آيات عظيمة منها: سعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وبروجها، وعلومها، واستغنائها عن عَمَد تُقِلُّها، إلى غير ذلك من عجائبها، ولهذا أمر سبحانه بأن يُرجِعَ الناظرُ البصرَ فيها كرةً بعد كرة، ويتأملَ استواءها واتِّسَاقها وبراءتها من الخلل والفطور[٢]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات].

قال ابن كثير: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه»[٣].

وقد اقترنت السماوات والأرض في كتاب الله تعالى في أكثر من مائة وثمانين موضعاً[٤].

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٣٨٧، ٥٥٣، ٦٥٦، ٧٢٠.
(٢) ينظر: بدائع الفوائد ١/ ٨٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٩.
(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٢٦، ٣٦٢.

قال ابن عاشور: «وفي القران معان لا تكاد تفترق مثل: السماء والأرض»[١].

ومن الآيات التي تدل على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة].

قال السعدي: «﴿أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو ما غاب عنا؛ فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب؛ فالشهادة من باب أولى»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة].

قال ابن قتيبة: «أي: مبدعها»[٣].

وقال السجستاني[٤]: «﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: مُبْتَدع؛ أي: مبتدئ»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران].

قال السعدي: «أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره، مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤، وينظر: البيان والتبيين ١/ ٢٧.
(٢) تفسير السعدي ٤٨.
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٨١.
(٤) هو: محمد بن عزير السجستاني، أبو بكر العزيري، من بني عزرة، مفسر، اشتهر بكتابه: «غريب القرآن»، وكان مقيماً ببغداد، مات سنة (٣٣٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٨، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٧، طبقات الأدنه وي ٤٢٥.
(٥) غريب القرآن ١١٧.

امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

أمر الله تعالى في هذه الآية بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، لا يعلمه إلا الله!.

قال القرطبي: «ونبَّه تعالى بالعرض على الطول لان الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ [آل عمران].

قال الطبري: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم: لله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، فكيف يكون أيها المفترون على الله، من كان ملك ذلك له فقيراً؟»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل].

قال مكي: «قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المعنى: لله ما غاب عن أبصاركم في السماوات والأرض دون ما سواه»[٤].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء»[٥].

---

(١) تفسير السعدي ١٣٧.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/ ٤٧٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٠٥٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور].

قال أبو السعود: «ولله ملك السماوات والأرض لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

قال ابن عطية: «هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو بمسخر ومالك»(٢).

وبعد تأمل مواضع اقتران السماوات والأرض في القرآن، تبين لي ما يأتي:

١ ـ تقدُّم السماوات على الأرض في كتاب الله تعالى غالباً، وفيه: أن الآيات التي في السماوات أعظم منها في الأرض(٣).

وفي مواضع قليلة قُدمت الأرض، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة].

فتقديم الأرض لمناسبة السياق، وأن الأرض هنا هي منَّة الله تعالى على الخلق فكيف يكْفُر بالله من خلقه الله، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ومرجعُه إلى الله.

قال البقاعي: «ولما كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لا يرام، والجوهر البالغ في الأحكام، والزينة البديعة النظام، المبنية على المصالح

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٨٢.

الجسام، وكثرة المنافع والأعلام، عبَّر في أمرها بثم فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: وشرف على ذلك جهة العلو بنفس الجهة والحسن والطهارة وكثرة المنافع، وتقديم الأرض هنا؛ لأنها أدل لشدة الملابسة والمباشرة»[(١)].

ـ وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها، وتوسيط حرف النفي بينهما، للدلالة على الترقي من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

فتقديم الأرض هنا مناسب لسياق الكلام؛ لأن الكلام في حال أهلها.

قال البيضاوي: «وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها»[(٣)].

وقال أبو حيان: «ولما ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم الأرض الذي هي محل المخاطبين على السماء، بخلاف ما في سورة سبأ، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض»[(٤)].

وقال ابن القيم: «وأما تقديم الأرض في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبالرتبة أيضاً؛ لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١]،

(١) نظم الدرر ١/ ٨٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٦.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٠٥.
(٤) البحر المحيط ٥/ ١٧٢.

فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها»[١].

ـ وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»[٢].

فتقديم السماء على الأرض ـ والله أعلم ـ هو الأصل في كتاب الله؛ لاعتبار الرتبة والفضل والشرف، وما فيها من آيات هي أعظم من آيات الأرض.

وتقديم الأرض لأسرار في مواضعه تناسب السياق، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

قال ابن القيم: «وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي، ونحو: سميع عليم، ولم يجئ عليم سميع، وكذلك: عزيز حكيم، وغفور رحيم، وفي موضع واحد: الرحيم الغفور، إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة؛ فنقول: إن تقديم الألفاظ في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان؛ بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال»[٣].

٢ ـ أن اقتران السماء والأرض كثيراً ما يكون في مواضع الدلالة على وحدانية الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة؛ فتكرر في علم الله تعالى لغيب السماوات والأرض، وكذلك في ملك الله للسماوات والأرض، وفي خلق الله للسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وفي تسخير ما فيهما لعباده، وفي سعة رحمته الله تعالى بهم، ورجوع من فيهما إليه، ونحو ذلك.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٧، وينظر: ملاك التأويل ١/ ٣٤٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٣، روح المعاني ١٣/ ٢٤١.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٦٥.

٣ ـ أن اقترانهما تكرر مرتين في أعظم آية من كتاب الله، وهي: آية الكرسي؛ مما يدل على عظمتهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

٤ ـ أن اقتران السماء والأرض، والشمس والقمر، وغيرهما دليل على كمال خالقهما، حيث خلق الشيء وما يُقَابله ويُذْكَر معه.

قال الطبري: «عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر]، قال: كلّ خلق الله شفع، السماء والأرض، والبرّ والبحر، والجنّ والإنس، والشمس والقمر، والله الوَتر وحده»(١).

والحاصل: أن هذه آيات عظيمة من آيات الله تعالى، ولكن يغفل الإنسان عن تدبرها، ولذا كرَّر الله تعالى ذكرَ هذه الآيات في سورٍ من القرآن الكريم، فيجيء مرة ذِكرُ الشمس والقمر، وأخرى ذكر الليل والنهار، وثالثة خلق السماوات والأرض، وهكذا؛ لأجل أن يصطحب الإنسان ذكرها فلا يغْفَل ولا ينسى والله المستعان، وهو جل وعلا أعلم وأحكم.

المطلب الثاني

قرن بعض دلائل الأنفس بدلائل الآفاق

عادة القرآن في الاستدلال لتوحيد الله، وبيان عظمته، قرنُ دلائلِ الأنفُس بدلائل الآفاق، وهذه الدلائلُ لها أثرٌ عظيمٌ في النفوس، كما هي

(١) أخرجه الفريابي في التفسير. ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٤، والطبري ٢٤/ ٣٩٨، وذكره البخاري تعليقاً باختصار، قال ابن حجر: أراد مجاهد بهذا أن كل شيء له مقابل يقابله، ويذكر معه، فهو بالنسبة إليه شفع؛ كالسماء والأرض، والإنس والجن... إلخ، وبهذا زال الإشكال بأن السماوات سبع والسبع ليس بشفع، ينظر: فتح الباري ٦/ ٣٦٥.

مواعظُ القرآن صالحةٌ لكل زمان ومكان، كل ذلك لتثبيت الإيمان في القلوب.

والمراد بدلائل الأنفس: دلالة أحوال بدن الإنسان، ودلالة أحوال نفسه على توحيد الله تعالى، مثل: أطوار خلق الإنسان، وعلاقتُه بربه، وحاجتُه إليه.

قال ابن عطية: «﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات]، إحالة على النظر في شخص الإنسان؛ فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله فيه ـ مع كونه من تراب ـ من لطائف الحواس، ومن أمر النفس وجهاتها ونطقها واتصال هذا الجزء منها بالعقل ومن هيئة الأعضاء»(١).

ودلائل الآفاق: دلالةُ كلِّ شيءٍ غير الإنسان من هذا العالم على توحيد الله تعالى، وهي أقسام كثيرة؛ منها: أحوال الليل والنهار، والسماء والأرض(٢).

قال الراغب: «الآفاق؛ أي: في النواحي»(٣).

وللسماء آفاق، وللأرض آفاق(٤).

وعادة القرآن اقتران دلائل الأنفس ودلائل الآفاق.

قال الرازي: «واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق»(٥).

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصّلت].

قال النحاس: «وقوله جل وعز: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ

(١) المحرر الوجيز ٥/١٥٨.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٧/٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٧٩.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/١١٤، لسان العرب ١٠/٥.
(٥) تفسير الرازي ٣١/٥٦.

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: في آفاق الدنيا وتقلب أحوالها ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مثل ذلك»[(١)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

في هذه الآية عطف جملة: وهو الذي يتوفاكم، على جملة، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، انتقالاً من بيان سعة علم الله تعالى إلى بيان عظيم قدرته، وإثبات البعث بعد الموت؛ لأن ذلك كلّه من دلائل الألوهية، تذكيراً للعارف، وتعليماً لغيره، فأعقب تعالى بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس بوفاتهم وبعثهم، ما ذكر من دلائلها في الآفاق ـ من سعة علمه وإحاطته بكل شيء ـ كما هي عادة القرآن.

قال الطبري: «فالذي يقبض أرواحكم بالليل، ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته، غير مُنكَرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردِّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير مُنكَرٍ لمن قدر على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تعاينوه، وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعاينتم»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ

(١) معاني القرآن ٦/ ٢٨٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ١٥٩.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٤٠٦.

مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر].

ففي هذه الآيات من دلائل الآفاق:

ذكر أحوال الليل والنهار، وخلق الأرض والسماء.

وفيها من دلائل الأنفس:

ابتداءُ تصوير الإنسان، وتحسين صورته من قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ورزقُه من الطيبات في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وكيفيةُ تكوُّن بدن الإنسان من كونهِ نطفة إلى موته؛ كلُّها مذكورة في هذه الآيات.

فقَرَن جلَّ وعلا بين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس لبيان الحق للخلق.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد

أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت]؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرُّوم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ أي: يوم القيامة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصِّلت]، وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطُّور]»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

في هذه الآية اقترانٌ لدلائل الآفاق بدلائل الأنفس، لِمَا بينهما من العلائق، والغايةُ: بيانُ أن هذه الآيات حقٌّ من عند الله[(٢)].

قال ابن عاشور: «بعد أن ذكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس التي هي من علائق الأرض عطف ذكر السماء للمناسبة، وتمهيداً للقسم الذي بعده في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٧٠.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥٤.

طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

أمَرَ الله تعالى في هذه الآية بتعظيمه وأعقبها بدلائل الأنفس والآفاق:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، هذا من دلائل الأنفس على توحيد الله.

قال ابن الجوزي: «﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة ثم من علقة شيئا بعد شيء إلى آخر الخلق»[(١)].

والثاني: دلائل الآفاق بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس]، الآيات.

فالآية الأولى: من دلائل الأنفس، والثانية: وما بعدها من دلائل الآفاق.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطّارق]، هذه وما بعدها في دلائل الأنفس، إلى أن قال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطّارق] وما بعدها في دلائل الآفاق؛ لإثبات البعث والجزاء، وأن القرآن حقّ.

وبعد التأمل في هذه النماذج تبين لي:

١ ـ أن اقتران دلائل الآفاق ودلائل الأنفس كثير مبثوث في القرآن.

٢ ـ أن من حِكَم اقترانهما: مراعاة حال المخاطب، وتنويع وسائل الاستدلال.

٣ ـ أن النظر في دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، مع فهم نصوص الكتاب والسُّنَّة والتدبر فيها كما أمر الله، يوصِل إلى الحق ومعرفة رب العالمين، وأنه هو المستحق للعبادة وحده.

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٧١.

كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١]: «فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته»[٢].

٤ ـ أن القرآن يبدأ تارة بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة].

وذلك لأن نفس الإنسان أقربُ الأشياء إليه، وهذا مسوغ معقول للبداية بالأقرب.

وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣].

أ ـ وذلك لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب.

---

(١) هو: الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، كان حافظاً ذكياً تعلَّم الكثير وانطلق للدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، ونفع الله به كثيراً وفي مصنفاته، ومنها: «الأصول الثلاثة»، وكتاب «التوحيد»، وغيرها، مات سنة (١٢٠٦هـ)، له تراجم في عدة مصادر، فلينظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه للأستاذ مسعود الندوي ص٣٧ وما بعدها.

(٢) الأصول الثلاثة ١٠.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

فإذا تأمل الإنسان في عظمة خلق الله أوصله ذلك إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى وربوبيته، وإذا تفكر الإنسان في دلائل نفسه، عرف قدرة القدير، وعجز عقله عن التحليل، فكيف إذا قاسها إلى السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض وما فيها من البحار والجبال والنبات والحيوان، وهنا يعرف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط بوصفه الواصفون، وأن كل ما خلقه الله ففيه الحكم البالغة، والأسرار العظيمة، مما لا سبيل إلى معرفته، وهنا يقول العبد: سبحانك![1].

ب ـ أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يَحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق؛ لأن الشُّبَه فيها أكثر، فهنا تقع البداية بها[2]، والله أعلم.

وعليه؛ فإن التقديم راجع لما يناسب السياق من حال المخاطب، فإذا لم يَفْهم بُيِّن له بوجه آخر.

فالدلائل المُتَنَوعةُ لا تخلو: أن يُبدأ بالأبْيَن ليُفهم ثم يرتقي إلى الأخفى لزيادة الدلالة، أو يُبدأ بالأعلى لأن له وجهٌ معتبر؛ فإن فهمَه المُستفيد فذلك، وإلا ينْزلُ درجةً فدرجة ليُفهَم ويزيد الفهم[3].

وقد يُجمَع بين الدلائل في جملةٍ واحدة.

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما ذَكَر دلائل الآفاق أولاً، ودلائل الأنفس ثانياً، ذكر لفظاً يتناول الكل فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾»[4]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٩/ ١١٢.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٣٠/ ١٢٤.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٥/ ٨٧، البحر المحيط ٧/ ١٥٩.
(٤) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ١٨٢.

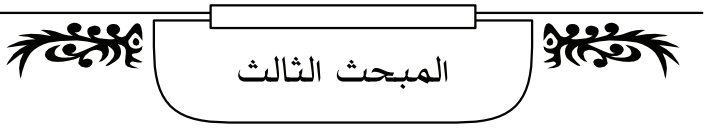

قرن بعض الأحكام ببعض

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض.**
- **المطلب الثاني: قرن بعض الأحكام بما يحث على فعلها.**

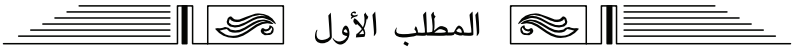

قرن بعض العبادات الشرعية ببعض

مَن تدبر كتاب الله تعالى رأى اقتران بعض العبادات ببعض في آيات كثيرة، ومنها ما هو اقتران في آية واحدة، ومنها ما هو في سياق واحد من الآيات.

ومن أمثلة ذلك:

❐ أولاً: الصلاة والزكاة:

قرنت الصلاة بأعمال صالحة كثيرة.

قال ابن تيمية عن الصلاة: «وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ﴾ [النساء: ١٠٢]، إلى

قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]»[(١)].

وأكثر ما اقترنت عبادة الصلاة في كتاب الله تعالى بعبادة الزكاة.

قال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل: الصلاة والزكاة»[(٢)].

وقال الرازي: «كلما ذكر الصلاة في كتابه ذكر الزكاة بعدها»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً»[(٤)].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جزي: «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: الزكاة؛ لاقترانها مع الصلاة، والثاني: أنه التطوع، والثالث: العموم، وهو الأرجح لأنه لا دليل على التخصيص»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة].

فهذا الاقتران في الألفاظ يدل على الاقتران في الأهمية، حيث يقترنان في الأمر بهما تارة، وفي بيان جزائهما أخرى، وفي مدح من اتصف بهما ثالثة، إلى غير ذلك.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].

قال أبو السعود: «﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على فاعفوا[(٦)]،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٧٠.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٧.
(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٢٤٧.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.
(٥) التسهيل ١/ ٧٠.
(٦) قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا =

أُمِروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة، وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

فجعل سبحانه سبيل العفو عنهم، وترك رصدهم في الطرق، بالتوبة عن الشرك، ويحصل بالإيمان، وتصديق هذا الإيمان بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فهما شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا؛ لأنهم صاروا إخواناً كما في الآية

= مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٤٦.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٧٣.

التالية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التوبة: ١١][1].

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات؛ لكونهما رأسي العبادات البدنية والمالية»[2].

وقال السعدي: «وفي هذه الآية، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه»[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج].

قال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إنْ وطَّنَّا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، يقول: إن نصرناهم على أعدائهم وقهروا مشركي مكة، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة بحدودها، وآتوا الزكاة؛ يقول: وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها الله له»[4].

وقال ابن عاشور: «فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديدٍ لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين»[5].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ [الشورى].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٥٢، تفسير ابن كثير ٤/ ١١٢، التحرير والتنوير ١٠/ ١١٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٤.
(٣) تفسير السعدي ٣٢٩.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦٥١.
(٥) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٨٠.

في الآيات قبلها بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع قليل لهما، فإذا صارا إلى الآخرة كان ما عند الله خير للمؤمن؛ حيث يقول تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى].

ثم بيَّن تعالى أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ومنها: إقامة الصلاة، وعدم العجلة بالتشاور في الرأي، والقيام بالنفقة الواجبة والمستحبة[١].

وقال السعدي: «﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة].

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، ورزقكم الله التوبة من تركككم ذلك، فأدّوا فرائض الله التي أوجبها عليكم، ولم يضعها عنكم من الصلاة والزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه»[٣].

وقال السعدي: «﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ١٩٧.
(٢) تفسير السعدي ٧٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٥١.

وهاتان العبادتان هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

قال البيضاوي: «﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت، أو من متاع الدنيا»[(٢)].

وبعدُ؛ فعند تأمل كَثْرة اقتران الصلاة والزكاة في كتاب الله تعالى؛ يظهر ـ والله أعلم ـ أن من أسباب ذلك:

١ ـ أن الصلاة والزكاة هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، فالصلاة عبادة جسدية، وفيها تطهير النفس، والزكاة عبادة مالية وفيها تطهير المال، والصلاة حق للمعبود على عبيده، والزكاة حق للفقراء على الأغنياء، ففيهما جِماع معاني العبادات، وكلُ إنسان يحتاج إليهما لتطهير نفسه بالصلاة، وماله بالزكاة، والصلاةُ واجبة على الجميع، والمال يحتاج إليه الجميع، ولذا وجبت زكاة المال، ومن لا يملك مالاً فله حقٌّ في مال غيره.

٢ ـ وأن من أقام الصلاة على الوجه الذي طُلب منه، فلا يمكن أن يمنع الزكاة.

٣ ـ وأن الصلاة فيها تكميل النفس، والزكاة فيها تكميل الغير.

وهما مما شرعه الله على من قبلنا كما قال تعالى في إسماعيل عليه السلام:

---

(١) تفسير السعدي ٨٤٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٤٠٩.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

ومن لطائف قرن الزكاة بالصلاة ما جاء في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور]، مع أن الزكاة لا تفعل في المساجد، ولكن لكونها قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك خوفهم ليس مقصوراً على كونهم في المساجد[(١)].

ولفضل الصلاة والزكاة وشرفهما خصهما سبحانه بالذكر بعد أمره بعبادته في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البيِّنة]، ولكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين[(٢)].

قال البيضاوي: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما[(٣)] على سائر الأعمال الصالحة»[(٤)].

❐ ثانياً: اقتران الصلاة والصبر:

جاء اقتران الصلاة بالصبر في مواضع كثيرة في كتاب الله.

قال ابن تيمية: «يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طـــــــه: ١٣٠]،

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٨/ ١٧٨.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٨٦١.
(٣) لعلها من اسْتَأنف الشيء وأْتَنَفَه إذا أخذ أوله وابتدأه، لسان العرب ٩/ ١٢، فالصلاة والزكاة هما أساس الأعمال وأولها.
(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٥٧٦.

وكذلك في سورة ق: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر]، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]»[1].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية حث على تحمل مصائب الدنيا والاستعانة على جميع المطالب بالصبر والصلاة، فبهما يسهل على العبد القيام بالطاعات، وترك المحرمات، وتخف الكريهات، وبيَّن سبحانه أنه لا يوفق إلى الاستعانة بهما إلا الخاشعون[2].

قال ابن كثير: «لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «**عجباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له**»[3].

وبيَّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]»[4].

ـ وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦١.

(٢) ينظر: التسهيل ١/ ٩٠، القواعد الحسان ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، بلفظ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٦.

وهنا ختم الآية بغير ما ختم به الأولى، وفي كلٍّ مراعاة سياق الآية.

ففي الآية الأولى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، إشارة إلى التثاقل والتكاسل ممن قل عنده الإخلاص، وضعف لديه اليقين، وذلك مناسب لحال بني إسرائيل الذين تتحدث عنهم الآيات قبل، كما أخبر تعالى عن حال المنافقين وأكثرهم من يهود: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما الآية الثانية فالنداء فيها للمؤمنين، وحالهُم حالُ رِضَى واستقامة؛ فناسب وصفُهم بالصبر، إذ بالصبر على الطاعات حصول الدرجات.

فجاء ختام كل آية بما يناسب سياقها، والله أعلم بما أراد[(١)].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة الله، واتباع أمره ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر»[(٢)].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

قال ابن تيمية: «وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/ ٣٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٤٢، وينظر: تفسير القرطبي ١٤/ ٦٨، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٨.

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، فهذه مواضع قَرَنَ فيها الصلاة والصبر»[(١)].

ومن أوجه المناسبة لاقتران الصبر والصلاة:

١ ـ أن الصلاة وغيرها من العبادات تحتاج إلى صبر، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، فاقترانهما لأن أحدهما يعين على الآخر.

قال ابن القيم: «قرن سبحانه الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها.

فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم: ٥]، وجعله قرين الحق كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وجعله سبب محبته ومعيته، ونصره وعونه، وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً، والله أعلم»[(٢)].

٢ ـ أنه يكتنف إقامةَ الصلاة جميعُ أنواع الصبر، فمَن أقامها كاملةً فقد جمع الصبر بأنواعه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، فاستعمل القرآن صيغة

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٥.
(٢) عدة الصابرين ٦١.

المبالغة في الفعل، وزيادة المبنى في العادة تدل على زيادة المعنى.

وفي أمْر الرسول ﷺ بالاصطبار عليها أمر بالمداومة، وفيه أشارة إلى أن في رعاية العبادة حق الرعاية مشقة على النفس، وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، دفعٌ لما قد يخطر ببال أحدٍ من أن المداومة على الصلاة رُبما تضُر بالمعاش، فكأنه قيل: داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم نحن نرزقكم، وفيه إشعار بأن الصلاة سبب لزيادة الرزق وزوال الهم(١).

٣ ـ أن الصبر والصلاة مما يُستعان بهما على النوائب والمصائب وتحمُّل الشدائد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

٤ ـ أن الصلاة نور والصبر ضياء، فاجتمع فيهما معنى النور، كما قال ﷺ: «**والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء**»(٢).

قال ابن رجب: «فهذه الأنواع الثلاثة من الأعمال أنوار كلُّها، لكن منها ما يختص بنوع من أنواع النور، فالصلاة نور مطلق، وأما الصبر فإنه ضياء والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض، فيه إشراق بغير إحراق، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]»(٣).

وهذه المناسبة في الشمس والقمر جعلتهما متكاملين، وهكذا في الصلاة والصبر، فالصلاة نور مطلق، وفيها راحة النفس، وقرة العين، وأما الصبر فضياء فيه نوع حرارة، فهو نور لقلب المؤمن عند صبره على الطاعات وعن المحرمات وعلى البلايا والملمات، وفي الصبر عواقب حميدة في الدنيا

(١) ينظر: روح المعاني ١٦/ ٢٨٥.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) ١/ ٢٠٣، كتاب الطهارة باب فضل الوضوء، من حديث أبي مالك الأشعري.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٦٥.

والآخرة لمن أخلص نيته لله تعالى، وفيه حرارة بسبب منع النفس عما ترغب، وحبسها على ما تكره، وحرارة الصبر تذهبه راحة الصلاة، فيحصل النور الكامل لمن صلى وصبر.

٥ ـ أنه باجتماع هذه العبادات صلاح الخلق أجمع.

قال ابن تيمية: «فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية؛ إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة.

يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج، وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر»[(١)].

❐ ثالثاً: اقتران عبادة الله وبر الوالدين:

قَرَن الله تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين في كتابه، ومن هذه الآيات ما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة].

فهنا قرن تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، وفيه التأكيد على أهميته ووجوبه.

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يدل على تأكيد حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما كافرين كانا أو مؤمنين؛ لأنه قرنه إلى الأمر بعبادته تعالى»[(٢)].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأمرناهم بالوالدين إحساناً، وقرن الله ﷻ في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد؛ لأن

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.
(٢) أحكام القرآن ١/ ٤٧.

النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني ـ وهو التربية ـ من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]»[(١)].

وقال ابن كثير: «يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء] إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦]»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

في هذه الآية قرن تعالى الإحسان إلى الوالدين بأعظم أمر، وأعظم نهي، وهذا دليل على عِظَم هذا الحق.

قال السمرقندي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إلى الوالدين؛ يعني: براً بهما وعطفاً عليهما، وفي هذه الآية: بيان حُرْمَة الوالدين؛ لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه، ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث، لا يقبل

(١) تفسير القرطبي ٢/ ١٣.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٦.

إحداها بدون الأخرى، إحداها: قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، والثانية: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والثالثة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وغيرها»(١).

قال الجصاص: «قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فقرن تعالى ذكره إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده، وأمر به كما أمر بهما، كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: ﴿ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، وكفى بذلك دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برهما والإحسان إليهما»(٢).

وقال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

قال القرطبي: «أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]»(٤).

وقال ابن كثير: «والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿...أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٩٦.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٨.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٨.

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]، والآيات في هذا كثيرة»[(١)].

وقال في تفسير آية لقمان: «ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن»[(٢)].

وهو كذلك فالأمثلة كثيرة، بل لا تكاد تجد الحث على بر الوالدين أو التحذير من عقوقهما إلا وقبلها أو بعدها الحديث عن عبادة الله وتوحيده أو النهي عن الشرك.

وعند التماس المناسبة في هذا الاقتران، تبين لي من الأوجه ما يلي:

١ ـ أن سبب وجود الإنسان الحقيقي هو إيجاد الله تعالى له، والسبب الظاهري لوجوده والداه، فأمر بتعظيم الموجد الأول، ثم قرنه بمن كان سبباً في وجوده ظاهراً، فالمناسبة في الإيجاد.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين، وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري»[(٣)].

٢ ـ أن الله أمر بتعظيم حقه تعالى، وأمر بتعظيم حقوق المخلوقين، وأحق الناس بذلك الوالدان، ففيه تأكيد الوجوب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٦.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٧.

قال القرطبي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقد قرن بين عبادته وبين الإحسان للوالدين في الوجوب»(١).

٣ ـ أن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى فوجب شكره عليها، وأعظم منعم على الإنسان بعد ربه والداه، ولذا جاء اقتران شكره تعالى بشكر الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، وأحق الناس بالشكر بعد الله هما الوالدان.

قال الرازي: «ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإلٰه الخالق نعمة الوالدين»(٢).

٤ ـ تربية النفس على الوفاء بالحق لله تعالى، والوفاء بالحق لعموم الخلق، والتأكيد لأول وأولى الحقوق وهو حق الوالدين.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]؛ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين»(٣).

كما أوصى الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف].

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٩.

وقبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة»(١).

❐ رابعاً: اقتران عبادة الله والتوكل:

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]»(٢).

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته فعليه توكلوا، يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه، ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا»(٣).

وقال السعدي: «﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٨.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ١٦٨.
(٤) تفسير السعدي ٣٧١.

﴿تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة].

بيَّن تعالى أنه هو الكافي لعبده، لا معبود بحق إلا هو، وربط بهذه الشهادة التوكل عليه فهو الكافي، وختم الآية بأنه رب العرش العظيم، الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده[١].

وقال السعدي: «﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود].

أمر الله تعالى بعبادته ثم ذكر التوكل على وجه الخصوص؛ لتأكيده وبيان أهميته، وأن التوكل هو وظيفة الإيمان.

قال أبو السعود: «﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فإنه كافيك، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل، على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار؛ لأنه لا ينفع دونها»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد].

أمر الله نبيه ﷺ بالتصريح بالدين والإفصاح في الدعوة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، والمتاب: المرجع كالمآب لأن التوبة الرجوع[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٣٥٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٩.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلٰهية، هو ربي لا إلٰه إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: في جميع أموري»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

قال الطبري: «وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يقول: إلى الله أفوض أمري، فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾، وإليه أُقبل بالطاعة، وأرْجِع بالتوبة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]؛ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إلٰه إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٠.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٥.

ومن أوجه مناسبة اقتران التوكل بالعبادة:

١ ـ أنهما الجامعان للدين كله.

قال ابن تيمية: «فهو جَمَع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله»(١).

٢ ـ أن المستحق للعبادة والتوكل هو الله وحده.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؛ أي: أطلب ربّاً سواه، وهو رب كل شيء، يَرُبّني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري؛ أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأشباه ذلك من الآيات»(٢).

٣ ـ أن من أراد تحقيق العبودية لله تعالى، فلا يستغني عن التوكل على الله تعالى، فهو الموفق وهو المعين، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

٤ ـ أن اجتماعهما يفيد معنى زائداً على إفراد واحد منهما في موضع دون الآخر.

قال السعدي: «إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣.

ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها»[(١)].

فقد جاء التوكل على الله تعالى في القرآن أمراً للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وأمْراً للناس على ألسن الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس]، وجعله الله من صفات الرسل، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨]، وجعله من صفات المؤمنين الصادقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، وبيَّن فضائله وآثاره، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق: ٣]، فصار التوكل عند الإطلاق دالاً على العبادة، وعند إطلاق العبادة دليل عليه، وعند اقترانهما تأكيد وزيادة كمال في العبادة.

قال الغزالي[(٢)]: «وكل ما ذُكِر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهَّار»[(٣)].

وأختِم بقول ابن القيم: «وهذان الأصلان وهما التوكل والعبادة قد ذُكرا

---

(١) القواعد الحسان ٣٨.

(٢) هو: محمد بن محمد الطوسي الغزالي الشافعي، أبو حامد، فقيه أصولي متكلم، له نحو ٢٠٠ مصنف، من أشهر مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «ياقوت التأويل في تفسير التنزيل»، و«المستصفى من علم الأصول»، و«الاقتصاد في العلوم»، و«المنقذ من الضلال»، مات سنة (٥٠٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٧٥، شذرات الذهب ٤/ ١٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٤.

في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها هذا أحدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: إياك نعبد وإياك نستعين»(١).

والله تعالى أعلم.

❏ خامساً: اقتران الإيمان والعمل الصالح:

قَرَن الله تعالى في كتابه بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر من ثمانين موضعاً؛ وذلك لأن الإيمان لا يكتمل بلا عمل صالح، والعمل لا يكون صالحاً بلا إيمان.

قال ابن عاشور: «وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الرُّوم]»(٢).

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١١٧.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِۚ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [فاطر].

ونستفيد من هذه العادة الواضحة في كتاب الله تعالى ما يلي:

١ ـ أن اقتران الإيمان والعمل الصالح كثيراً يدل على الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن لهذه المسألة، والتي تعتبر القاعدة الأساسية في سعادة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

فأخبر جل وعلا ووعد من جَمَع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة، والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

٢ ـ التأكيد على تلازم الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح مصدق للإيمان، والإيمان لازم لقبول العمل الصالح.

فلأن الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، والعمل الصالح يؤكد الإيمان ويدعمه ويقويه، اقترنا في القرآن كثيراً.

ومن أقرب ما يدل على هذا التلازم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]؛ لأنها في سياق الرد على من تسمى بالإيمان بالقول، دون إصلاح العمل، حيث قال تعالى قبلها: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]، وقال بعدها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(١).

٣ ـ أن اجتماع الإيمان والعمل الصالح هو الذي يترتب عليه الفوز الكبير والجزاء العظيم، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٨٠ (٦٦).

٤ ـ أن العمل الصالح جزء من الإيمان، وذكره مقترناً به؛ لزيادة البيان وكمال الإيمان.

قال السعدي: «والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية»(١).

٥ ـ أكثر مواضع اقتران الإيمان والعمل الصالح جاء بتقديم الإيمان على العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه]، لكن تقديم العمل الصالح في بعض المواضع أدل على التلازم، كما قال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه]، فهذا دليل على أنه لا يُقبل العمل الصالح بلا إيمان، ولا الإيمان بلا عمل صالح.

وتقديم الإيمان في أكثر المواضع؛ لأن المراد به قول القلب وعمله، وهو الأصل.

وإذا قُدم عملٌ على الإيمان دلَّ على أهميته من بين أعمال الإيمان حسب السياق، كما قدم الله سبحانه الشكر على الإيمان في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

قال البغوي: «﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾؛ أي: إن شكرتم نعماءه، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به، فيه تقديم وتأخير؛ لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان»(٢).

قال البيضاوي: «وإنما قدم الشكر؛ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به»(٣).

وقدم جل وعلا الصلاة والزكاة على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي

(١) القواعد الحسان ٣٧.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٠٣.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٢.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢].

قال أبو السعود: «وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ مع كونهما من الفروع المترتبة عليه ـ لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام»(١).

المطلب الثاني

قرن الأحكام بما يحث على فعلها

جاء في كتاب الله تعالى الاقتران بين الأمر بالشيء وما يحث على فعله، والنهي عن الشيء وما يحث على تركه.

قال السعدي: «قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [لقمان: ٢]، يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته»(٢).

وفي كل أوامر القرآن ونواهيه جَلْبُ الخير للخلق ودفع الشر عنهم، وذكر الفوائد العاجلة والآجلة للقيام بالأوامر، وذكر المحاذير من فعل النواهي، مما يحث على الفعل أو الترك، وقد أولى القرآن هذه المعاني عناية تامة، فقَرَن الله تعالى بين الحُكم ومعَان تَحُث على فعله أو تركه، والإنسان مأمورٌ بالامتثال المطلَق، سواء عرف الحِكْمة من الأوامر والنواهي أو خفيت عليه، ولكن عادةُ القرآن ذِكرُ بعضِ الحِكَم والثمرات لامتثال أحكام القرآن فعلاً أو تركاً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ١٥، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٧.
(٢) تفسير السعدي ٦٤٦.

ومن الأحكام التي اقترن بها ما يحث على فعلها:

❐ أولاً: قرن الأمر بإقامة الصلاة بما يحث على فعلها:

فقد أمر الله بإقامة الصلاة في مواضع كثيرة، وقرَن بها ما يحث على فعلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]»[(١)].

وقال السعدي عن إقامة الصلاة: «فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

قال البيضاوي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها[(٣)] حيث فوتوها على أنفسهم؛ لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢.
(٢) تفسير السعدي ٤٠.
(٣) هذا قول الفراء والسمرقندي. ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧٤.

في الجنة ومنزلاً في النار[١]»[٢].

وقال السعدي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ سواءً.

ولهذا قال هناك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال هاهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسار»[٤].

وجاء الوعيد على من تركها، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم.

ومعنى إضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وقيل: تركوها.

قال ابن جزي: «أضاعوا الصلاة، قيل: تركوها، وقيل: أخرجوها عن

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٥٣ (٤٣٤١) وهو آخر حديث فيه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، وقال الألباني: صحيح، في صحيح سنن ابن ماجه ٣/٤١١ (٣٥١٩)، وينظر: السلسلة الصحيحة ٥/٣٤٨ (٢٢٧٩).

(٢) تفسير البيضاوي ٤/١٤٨، وينظر: تفسير الرازي ٢٣/٧٢، تفسير القرطبي ١٢/١٠٨، روح المعاني ١٨/١٢.

(٣) تفسير السعدي ٥٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٨/٢٢٧.

أوقاتها، ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ الغي: الخسران»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدَّثر].

فأول ما ذَكَروا مما عُذِّبوا عليه ترك الصلاة.

قال الطبري: «﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ يقول: قال المجرمون لهم: لم نك في الدنيا من المصلين لله»[٢].

❐ ثانياً: قرن النفقة بما يحث عليها:

اقترن بالزكاة في القرآن ما يحث على فعلها، واجبها ونفلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

فجعل من ثمارها الفوز بالقرب من رحمة الله.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد].

بيَّن سبحانه أن الصدقة تضاعف إلى أضعاف كثيرة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن].

قال ابن كثير: «﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه»[٣].

---

(١) التسهيل ٢/ ١٦١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٤١.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل].

قال أبو السعود: «فسنُهَيئه للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه»(١).

وقال السعدي: «من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً»(٢).

فمن نعم الله تعالى على الخلق أن يسر لهم سبل الخير، وبين لهم الأجر والثواب الكبير عليها؛ ليكون معيناً على فعلها.

ومن عادة القرآن أنه كلما جاء ذمُّ الربا كان قبله أو بعده ذكر فضل الصدقة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة].

قال ابن عاشور: «﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ استطراد لبيان عاقبة الصدقة في الدنيا، أيضاً ببيان أن المتصدق يفوز بالخير في الدارين، كما باء المرابي بالشر فيهما، فهذا وعد ووعيد دنيويان»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم].

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٦٦.
(٢) القواعد الحسان ١١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ٩١.

❐ ثالثاً: قرن بالصيام بما يحث على فعله:

فقد قرنه الله تعالى بالحكمة من فرضه، وما يحث على فعله:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة].

ففي الآيتان عدد من الأمور التي تحث على الصيام، وترغب فيه:

١ ـ أن فَرْض الصيام عليكم، كما فُرِض على من قبلكم، وفي هذا تسهيل لهم.

٢ ـ أن من ثمرات الصيام: تحقيق التقوى.

٣ ـ أن الصيام أياماً معدودات.

٤ ـ الرخصة للمعذور، وجواز تأخير الصيام إلى أيام أخر.

وهذا مما يرغب المسلم بهذه العبادة العظيمة، ويسهلها عليه.

❐ رابعاً: قرن بالحج بمنافعه حثاً على فعله:

قرن الله تعالى الحج بما يحث على فعله.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح والتجارات.

وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة؛ كقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤.

فمن ثمرات الحج تقوى القلوب، وفيه مراعاة ذكر الفضل حثاً على العمل.

قال السعدي: «فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»(١).

❐ خامساً: اقتران ذكر القرآن بما يحث على العمل بما فيه:

جاء اقتران القرآن بذكر ما يحث على تلاوته، والعمل بما فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

بيَّن تعالى أن القرآن هداية للخلق، وفي كل زمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها، ويبشر بالأجر الكبير للمؤمنين العاملين للصالحات.

قال ابن كثير: «يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل»(٢).

قال السعدي: «القاعدة التاسعة والخمسون، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصاً صريحاً على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر].

قال الفراء: «وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ جواب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»(٤).

---

(١) تفسير السعدي ٥٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨.
(٣) القواعد الحسان ١٢٦.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٦٩.

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ للقليل من أعمالهم»[(١)].

وكثرةُ أوصاف القرآن تدل على فضله وشرفه، والحث على القرب منه، ولذا حث الله على تدبر آياته؛ لأنه يوصل إلى العلم والعمل.

ـ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

فالاستفادة الحقَّة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً.

وتيسير القرآن للناس من وسائل الترغيب في القيام بحقه، وعدم هجره.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

قال ابن عطية: «يسر بما فيه من حسن النظر وشرف المعاني، فله لَوْطة[(٢)] بالقلوب وامتزاج بالعقول السليمة، وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس»[(٣)].

وقال ابن جزي: «﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ وإنما كرر هذه الآية البليغة، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٩]؛ لينبه السامع

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٢) قال ابن منظور: «والولد أَلوطُ؛ أي: أَلصَقُ بالقلب، وكذلك كل شيء لَصِق بشيء فقد لاطَ به يَلوط لَوْطاً ويَليطُ لَيْطاً ولِياطاً: إذا لَصِق به؛ أي: الولد أَلصق بالقلب، والكلمة واوية ويائية، وإني لأَجِدُ له لَوْطاً ولَوْطةً ولُوطةً». لسان العرب ٧/ ٣٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦.

عند كل قصة فيعتبر بها، إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، ومن الملاطفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]»[(١)].

❐ سادساً: قرن الاستغفار بالخير وسعة الرزق:

ـ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، يقول تعالى ذكره للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت، وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل»[(٢)].

وقال السعدي: «ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به وتنتفعون»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

ذكر الله تعالى في كتابه أسباب الرزق، وأهمها طاعة الله ورسوله، ولزوم التقوى، ومن ذلك كثرة الاستغفار، كما في هذه الآيات.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

قال الماوردي: «﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ وهذا فيه

(١) التسهيل ٣/١٠٦.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٢٩.
(٣) تفسير السعدي ٣٧٦.

ترغيب في التوبة»[١].

وقال ابن جزي: «﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار»[٢].

وقال السعدي: «﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى»[٣].

وفي هذه الآيات من فضائل الاستغفار المرغبة فيه:

١ ـ أنه طاعة لله ورسوله.

٢ ـ وأنه سبب لمغفرة الذنوب، ونزول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، ودخول الجنات، وزيادة القوة بكل معانيها، والمتاع الحسن، وإيتاء كل ذي فضل فضله.

❐ سابعاً: قرن الصبر بالجزاء العظيم:

ذُكِر الصبر في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى؛ لأهميته وعظمته وعظمة الصابرين، ولذا قرن الله تعالى بالصبر جزاءه العظيم حثاً عليه وترغيباً فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص].

فبيَّن تعالى أن أجرهم مضاعف، وفيه الآية التالية أن هذا الأجر لا يحد، ولا يعلم قدر إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمر: ١٠].

قال السعدي: «فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠١.
(٢) التسهيل ٣/ ٢٣٠.
(٣) القواعد الحسان ٤١.
(٤) تفسير السعدي ٧٢٠.

ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد].

فمن فضائل الاستغفار أن جعل الله الملائكة تسلم على المؤمنين بسبب صبرهم، وعاقبتهم حميدة فضلاً من الله ومنة.

ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود].

فرتب سبحانه المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، مما يعين على القيام بها.

ـ وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون].

في هذه الآية جعَلَ الفوز يوم القيامة لمن صبر، وهذا فضل عظيم.

ومن هنا تظهر أهميةُ دراسة العلل الشرعية، والفضائل الإلٰهية، التي ذكرها الله تعالى في كتابه مقرونة بأوامره ونواهيه، ومعرفة طرائقها لإقناع النفس البشرية، واطمئنانها، وفيها إثبات إعجاز القرآن، وأنه من حكيم حميد.

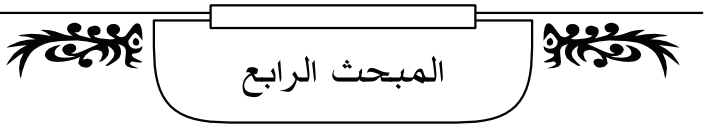

قرن الترغيب بالترهيب

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد.**
- **المطلب الثاني: تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله.**

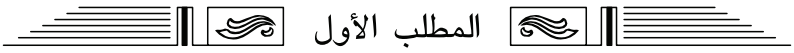

قرن الوعد بالوعيد

من عادات القرآن اقتران الوعد بالوعيد، فإذا جاءت آيةٌ في الوعيد، فإن قبلها أو بعدها آية في الوعد، وهذه قاعدة عظيمة في الوعظ، وهذا من أحسن ما تلين له القلوب، فالعاقل من يحدوه الخوف والطمع إلى الامتثال.

قال الرازي: «والحق أن القرآن بشارة ونذارة»(١).

وقال البيضاوي: «قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف] على عادته ﷻ في أن يشفع الوعيد بالوعد»(٢).

وقال الشاطبي: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارَنَه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً؛ فهو راجع

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٨٢.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٢١.

إلى الترجية والتخويف»[١].

وقال أبو السعود: «جرت السُّنَّة الإلٰهية على شفع الوعد بالوعيد، مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد؛ من الترغيب تارة، والترهيب أخرى، والتبشير مرة، والإنذار أخرى»[٢].

وهذا هو منهج الرسل في دعوة أقوامهم.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦]، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام]»[٣].

ومن تتبع كتاب الله تعالى وجد هذا واضحاً من خلال آياته، ومن أمثلة ذلك:

❐ أولاً: قرن ذكر العذاب بذكر الرحمة:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، لفظ عام في المال والقوة والجاه، وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء، ولما أخبر ﷻ بهذا ففسح للناس ميدان العمل وحضهم على الاستباق إلى الخير توعد ووعد تخويفاً منه وترجية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحققاً

(١) الموافقات ٤/ ١٦٧.
(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٢.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٠٦.

مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب، ويوصف به ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ ترجية لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله كثير: اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله تعالى بعباده»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة، حسبما جرت به سُنَّة التنزيل: من شفع الوعد بالوعيد، وإيراد الترغيب مع الترهيب»[2].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: فإن كذّبك ـ يا محمد ـ مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٨٧.

[الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج]، والآيات في هذا كثيرة جداً»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾، والغرض منه تأكيد الوعيد، ثم أتبع الوعيد بالوعد؛ فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾»[(٢)].

ثانياً: قرن ذكر الجنة بذكر النار.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة].

قال البيضاوي: «﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم، ووصف ثوابه على حال من كفر به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلٰهية: من أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٧.
(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٩.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٢٤١.

وقال أبو السعود: «عطف قصة المؤمنين بالقرآن، ووصف ثوابهم، على قصة الكافرين به، وكيفية عقابهم، جرياً على السُّنَّة الإلٰهية: من شفع الترغيب بالترهيب، والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك؛ لتخييل كمال التباين بين حال الفريقين»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

في هذه الآية قَرَن بين وصف الجنة ووصف النار، والتقدير: هل كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟(٣).

قال مكي: «﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ماكث أبداً في جهنم؛ أي: هل يستوي من هو في هذه الجنات والأنهار التي تقدم وصفها مع من هو ماكث في نار جهنم؟»(٤).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٦٨، وينظر: روح المعاني ١/ ٢٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٦.
(٣) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ٢٨٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٨٩٩.

ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج].

بعد ذكر هذا العذاب الشديد في النار، أعقبه بذكر الرحمة والنعيم في الجنة حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج].

قال القرطبي: «لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد].

قال النحاس: «فلما أخبر بولايته المؤمنين، وخذلانه الكافرين، أعلم بما أعده للمؤمنين والكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾؛ أي: منْزل لهم، ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾»[٣].

ومن الحكم في قرن الوعد بالوعيد:

١ ـ أن قرن الوعد بالوعيد أدعى للتأثر والقبول، وأعون على الطاعة، وترك المعصية.

٢ ـ أن هذا ما يوافق النفس البشرية، من الخوف من الوعيد، والرغبة في الوعد، فيجتمع في آن واحد: معالجة المسيء، ورده عن خطئه، وتثبيت المحسن، والزيادة في إحسانه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣١٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١.
(٣) معاني القرآن ٦/ ٤٧٠.

قال البيضاوي: «﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٢] اتبع الوعيد بالوعد: ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطاعة»(١).

٣ ـ أن اجتماع الوعد والوعيد مما يُلَيِّن القلوب، وهو الطريق للوعظ المفيد، فإذا جاءت هذه الموعظة بهذه الطريقة قبِلَت القلوب وامتَثَلت.

قال البقاعي: «ولِوصْف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم، والحتم لعقابهم؛ ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيُلزَم، وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيُترَك، . . فلما تم ذلك، وكان المقصود منه الدعاء إلى الله، انتهزت تلك الفرصة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، لما أسس لها من الترغيب بالترهيب»(٢).

٤ ـ أن الاقتصار على أحد الأسلوبين قد يحرف عن الطريق المستقيم، فالاقتصار على الوعد سبيل التواكل والتمادي في العصيان، وترك التوبة، والاقتصار على الوعيد سبيل اليأس والقنوط من رحمة الله، وكلاهما غير مقصود، لكن يغلب أحد الأسلوبين بحسب السياق ومقتضى الحال، ففي مواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية؛ لأن درء المفاسد آكد، وففي مواطن القنوط ومظنته يتسع مجال الترجية والترغيب(٣).

٥ ـ أن الاقتران يكون في آية واحدة، ويكون في آيات متعددة لكنها في سياق واحد، لتدل على ترابط القرآن، واكتمال الحق فيه والبيان، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله

ومن عادات القرآن ذكر أسماء الله تعالى وصفاته في أسلوب الترغيب أو الترهيب.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٩١، وينظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٨٥، روح المعاني ٤/ ٥٦.
(٢) نظم الدرر ١/ ٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ١٧٠، وقد أجاب الشاطبي على كل اعتراض يزعم عدم اطراد هذه الكلية.

قال ابن القيم: «جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة؛ كقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء]، والقرآن الكريم مملوء من هذا»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة].

فرب العالمين فيها معنى الترهيب، وبعدها الرحمٰن الرحيم فيها معنى الترغيب، وهذه معان مستفادة من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة]، وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، بأنه: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ترهيب قرنه بـ ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾؛ لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع»(٢).

وقال القاسمي: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ٣]، إيرادهما عقب وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذي هو أسلوب التنزيل الحكيم»(٣).

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة]، بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، من باب قرن الترغيب بالترهيب كما دل السياق.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فالرب هنا فيه معنى الترهيب، والغفور الرحيم فيه معنى الترغيب.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٨١.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٩.
(٣) تفسير القاسمي ١/ ٢٢٧.

قال ابن جزي: «﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ جمع بين التخويف والترجية»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج:].

فالبطش: هو الأخذ بقوة[٢]، وحيث وُصِف بالشدة فمعناه الزيادة في الغلظة، وفيه معنى شدة العقاب للجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام، مما يرهب من العصيان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يُبدىء البطش ويعيده؛ يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا»[٣].

ثم أعقبه باسم الغفور وقرنه باسم الودود[٤]، وفيهما معنى الوعد بالستر والمحبة والرضوان مما يرغب بالقرب من الرحمٰن.

قال ابن القيم: «وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»[٥].

وقال السعدي: «وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم»[٦].

---

(١) التسهيل ١/ ٣٨٩.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٣٣، وينظر: التسهيل ٣/ ٣٠٦.
(٤) الودود: هو المحب المحبوب. ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ٨٧.
(٥) التبيان ٦٠.
(٦) تفسير السعدي ٩١٨.

وقد سبقت عادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد، وهذه أمثلة أخصّ إذ هي في أسماء الله وصفاته.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

فاقتران السميع بالعليم في هذه الآية يحمل معنى التهديد والوعيد لأعداء الله، فالله ﷻ هو السامع لأقوالهم، العليم بأفعالهم.

قال الطبري: «فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضّالة العليمُ بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء.

ففَعَل الله بهم ذلك عَاجلاً وأنجزَ وَعْده، فكفى نبيّه ﷺ بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلَى بعضاً، وأذلّ بعضاً وأخزاه بالجزية والصَّغار»[(١)].

ومن اتصف بالسمع والعلم فهو القادر على صرف شرهم.

قال السعدي: «ولهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ١٨١].

فالسميع العليم فيه معنى التهديد والوعيد لمن بدل الوصية.

قال القرطبي: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف الموصين وتبديل المعتدين»[(٣)].

وقال السعدي: «وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٣/١١٦.
(٢) تفسير السعدي ٦٨.
(٣) تفسير القرطبي ٢/٢٦٩.
(٤) تفسير السعدي ٨٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة].

فختام الآية بهذين الاسمين فيه معنى التهديد والوعيد لمن عدل عن الحق بعد ما تبين له، فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي عن علم، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

قال ابن جزي: «﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ تهديد لمن زلَّ بعد البيان»(١).

وقال السعدي: «وفيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهَرَه بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة].

ففي ختام هذه الآية بهذين الاسمين التهديد لمن جعل الحلف مانعاً له من الخير.

قال الطبري: «وهذا من الله تعالى ذكره تهدُّدٌ ووعيد»(٣).

وقال السعدي: «فختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة].

وفي هذين الاسمين من أسماء الله تعالى معنى التهديد والوعيد لمن امتنع عن الرجوع من أجل المضارة والمشاقة للزوجة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦]، ففي ختام الآية بالاسمين ـ

(١) التسهيل ١/ ١٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٩٤.
(٣) تفسير الطبري ٤/ ٤٢٧.
(٤) تفسير السعدي ١٠٠.

الغفور الرحيم ـ الترغيب بالفيء؛ لأن ذلك مقام إنابة ورجوع إلى طاعة الله ﷻ فيما أمر به من المعاشرة بالمعروف.

قال السعدي: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة].

في ختام الآية بهذين الاسمين تهديد ووعيد لمن خالف شرع الله.

قال الطبري: «﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء»(٢).

وهكذا فسَّر الطبريُّ العزيزَ في جميع المواضع، كما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران].

(ويعني بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهاً غيرَه، أو عبد ربّاً سواه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره، لا يدخل ما دبَّرَه وَهَنٌ، ولا يلحقُه خللٌ»(٣).

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء]: «﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به من خلقه»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان].

ففي هذين الاسمين معنى الترهيب والترغيب.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان]؛ أي: المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ

---

(١) تفسير السعدي ١٠١.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٦١.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٧٦.

ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد»[١].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تجعل مِن تأمل أسماء الله تعالى وصفاته في القرآن معنى آخر، ودلالة على الدقة في الألفاظ، والإعجاز فيها وفي المعاني، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير القرطبي ١٤٨/١٦.

المبحث الخامس

ما يُضاف إلى الله من الخير والشر

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر.**
- **المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب.**

المطلب الأول

إضافة الخير إلى الله دون الشر

من عادات القرآن التربية على الأدب مع الله تعالى، بإضافة الخير إليه دون الشر في الخطاب وغيره، مع أن الكل بيده سبحانه.

فما قدره الله سبحانه خيرٌ كلُّه والشر ليس إلى الله، فالله هو الذي قدّر هذه الأقدار، والخير كله فيما أذن الله تعالى فيه، وما قد يُتصور من شر فليس بشر من كل وجه، وإنما هو شر في وقت دون وقت، أو في حال دون حال، أو في عين دون أخرى، فللَّه في أمره وخلقه حِكَم وأسرار.

كما قال ﷺ في استفتاح صلاة الليل: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»(١).

فالله ﷻ هو الخالق للحسنة والسيئة ومقدرُ وجودِها، كما في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أما من ناحية نسبة كل منهما إلى من أرشد إليها ودل عليها؛ فإن الله ﷻ قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٣٨٢ (٣٣٤٨)، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم ١/ ٥٣٤ (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: أن الله ﷻ هو الذي هداك وأرشدك ووفقك للحسنة تفضلاً منه ومنّة، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته عوقبت عليه(١).

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾: ما يصيبك يا محمد من رخاء ونعمة وعافية وسلامة، فمن فضل الله عليك، يتفضل به عليك إحساناً منه إليك، وأما قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك؛ يعني: بذنب استوجبتها به، اكتسبته نفسك»(٢).

ومثله قال ابن كثير وزاد: «كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]»(٣).

وقال الماوردي: «وفي الحسنة والسيئة ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الحسنة النعمة في الدين والدنيا، والسيئة المصيبة في الدين والدنيا(٤)، وهذا قول بعض البصريين.

والثاني: أن الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أُحد من شج رأسه وكسر رباعيته، وهو قول ابن عباس(٥)، والحسن.

والثالث: أن الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، وهذا قول أبي العالية(٦).

قوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قولان: أحدهما: يعني فبذنبك(٧)، والثاني: فبفعلك»(٨).

وقال ابن تيمية: «وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٥/ ٢٨٥.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٣.
(٤) رواه الطبري عن قتادة ٨/ ٥٥٩.
(٥) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٦) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٩.
(٧) رواه الطبري عن السدي، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨، ٥٥٩، وينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٢٥.
(٨) النكت والعيون ١/ ٥٠٩.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك؛ وما أصابك من جدب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك؛ وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره»[(١)].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

فقال سبحانه: بيدك الخير، ولم يقل والشر وإن كانا جميعاً بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة محبة ورضا، والشر لا يضاف إلا إلى مفعولاته؛ لأنه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه، وهذا معنى قوله: «**والشر ليس إليك**»[(٢)].

قال الشاطبي: «الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: بيدك الخير والشر، وإن كان قد ذكر القسمين معاً؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلى من لحق ذلك به شرٌّ ظاهر، نعم، قال في أثره: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، تنبيهاً في الجملة على أن الجميع خلقه»[(٣)].

وخلْقُ الله تعالى للأضداد والمتقابلات هو من كمال ربوبيته؛ كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم[(٤)].

والأمثلة الكثيرة من الآيات تبين غاية الأدب في نسبة الخير إلى الله دون الشر، ومنها:

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٢٤٢.
(٢) ينظر: البرهان ٤/ ٥٩.
(٣) الموافقات ٢/ ١٦٦.
(٤) ينظر: مدارج السالكين ١/ ١٢٨.

ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فنَسَبَ الإنعام إليه جل وعلا، وأما الغضب فنُسِب إلى ما لم يُسَمَّ فاعله.

قال ابن القيم: «الطريقة المعهودة في القرآن الكريم أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حُذِف، وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله.

فمنه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾، وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾»[(١)].

وقال الزركشي: «التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله، وأن الكل بيده؛ كقوله تعالى: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، ثم قال: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾، ولم يقل غير الذين غضبت عليهم»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فلم يُذكر المزيِّن تعليماً للأدب مع الله تعالى؛ لأنه تزيين الشر.

وقال تعالى في تزيين الخير: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ ٱلإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُم﴾ [الحجرات: ٧].

قال الطبري: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني تعالى ذكره: زُيِّن للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين وسائر ما عدّ.

وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على أتباع محمد ﷺ بعد علمهم بصدقه»[(٣)].

وقال ابن جزي: «قيل: المزين هو الله، وقيل: الشيطان، ولا تعارض بينهما فتزيين الله بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى الدنيا،

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٥٦.
(٢) البرهان ٤/٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٦/٢٤٣.